شروق ممدوح

أَشـيـــاءٌ
لا تُسْقِطها الجاذبيّـة

(مجموعة قصصية)

إصدارات دائرة الثقافة، حكومة الشارقة 2026 م

الفهـرس

- أشياء لا تسقطها الجاذبية 5

- ما لا تعرفه عن زيزي 7

- أيـن رُبَـــى؟! 9

- ظل الضحكة 11

- نوتة أخيرة لأبـي 13

- من الشارع إلى المائدة 15

- الأزرق الأخيـر 16

- الفُرصة الضائعة 17

- ليالي والخيوط الزرقاء 19

الإهداء..

إلى بابا وماما

نور قلبي

أكتب رغم أن الأبجدية لن تنصف الحب الذي في قلبي لكما.

"ليس في العالم إنسان بلا قصة".

ميخائيل نعيمة

أشياء لا تسقطها الجاذبية

همست «مايا» لنفسها في دهشة وهي تتأمل الفراغ الممتد فوق رأسها: «متى صار ما أحمله ثقيلاً إلى هذا الحد؟».

في عالم ما بعد الكارثة التي اجتاحت أوصال المدينة، ومنذ تلك الليلة التي تغير فيها كل شيء، استيقظ الناس ليجدوا أن قوانين الجاذبية قد اختلت بطريقة لم تعهدها البشرية. لم تكن الأشياء المادية هي ما ترفض ملامسة الأرض، بل الأثقال الخفية، الكلمات المكتومة، والأحلام المؤجلة، والذكريات الآسنة... باتت تطفو فوق رؤوس أصحابها كغيومٍ من خطايا وأطياف، تفضح ما يعجزون عن احتماله والبوح به، وبعضها الآخر، كان يهبط بتثاقل ليلثم التراب ويتلاشى رويداً رويداً، لتعود عجلة الوجود إلى دورانها الرتيب.

مع مرور الأيام، أتقنت «مايا» لغة تلك الأشياء الطافية؛ ذات ليلة غارقة في الصخب، خرجت تتأمل المارة، رأت هالات وظلالاً تطوف حولهم، زاغ بصرها بين الوجوه لتتأكد من بشريتهم، ووسط هذه الجلبة البصرية، لمحت فقاعات رمادية تحوم حول رجل خائر القوى، وفكرة معلقة كبندول ساعة فوق رأس آخر. خطت للأمام، فداهمتها رائحة حزن لاذعة تنبعث من غيمة تطفو فوق فتاة تعبرها؛ حزنٌ فاح برائحة فقد أبيها، وفي زاوية أخرى، شهقت بصوت خفيض: «يا إلهي!»، وهي ترمق صورةً باهتة تدور حول كهل هزيل. كانت أسرار الناس تحلق في العلن، فوضى بصرية تدمي العين، ومعجزة قاسية تكشف عورات الأرواح، وحدها «مايا» كانت تسير بهالة فارغة، لم يطفُ فوق رأسها شيء، ليس لأنها خاوية، بل لأن ما تقبض عليه في أعماقها كان أثقل من أن يطفو، وأكثر تجذراً من أن يُرى، بات الناس يخشونها، ينفرون من صمت هالتها. رموها بنظرات الارتياب، وتهامسوا حولها، ووصموها بـ «الباردة» التي لا تشعر، فلا أشياؤها تسقط، ولا هي تحلق! بقيت وحدها، يئن جسدها الضئيل تحت وطأة عاصفة حبيسة، يتأجج اللهب في صدرها، تود لو تقتلع هذا الثقل وترميه في أعمق فوهة بئر، لتمضي في دربها خفيفة كبقية البشر، ولكن، كيف للغريق أن يتخلى عن مائه؟

واصلت مسيرها بخطوات واسعة، في الشارع المقابل، تسمرت عيناها على مشهد انقبض له قلبها؛ أطفال يمرون، بينما ترتفع فوق رؤوسهم الصغيرة أصوات وكلمات

صلبة، لا تناسب أعمارهم، أدركت على الفور أنها ليست أثقالهم، بل هي بقايا الكبار الذين عجزوا عن حملها، فأسقطوها عمداً على أكتاف البراءة ليتخففوا. وبينما هي غارقة في وجوه المارة، تذكرت همساً قديماً تناقله الناس عن «النقطة النادرة»؛ بقعة في أطراف المدينة، يتخلص فيها المرء من أثقاله الأبدية، قادتها قدماها بغير وعي نحو بقعة مضيئة تتوهج في نهاية الطريق، وهناك يُقال إن من يترك أشياءه لا يعود كما جاء، وقبل أن تطأها، تسمر جسدها أمام سؤال مصيري: «إذا سقطت أشيائي وتسربت مني.. هل سأظل إنسانة؟».

لم تعد قادرة على التشبث بما تحمله، ولا على الهرب منه، وفي لحظة سكون رهيبة، اهتز شيء في أعماقها، ذكرى قديمة شقت طريقها من قاع الروح، تسللت فجأة.. صورة خاطفة، يد تفلت يدها بقسوة، وصوت يهمس: «لن تنسي»، ارتجفت أوصالها، وشعرت بشيء ينفصل عن صدرها، ينسلخ من لحمها، كان ذلك الصدع هو صدمة موت أخيها التوأم في حادث سير قبل خمس سنوات؛ الحزن الجاثم الذي ابتلعته حتى تحجر.

انفلت الشعور أخيرًا من تلقاء نفسه، عندها فقط، شعرت أنها أخف، رفعت رأسها نحو السماء، تنقل بصرها بين النجوم، وللمرة الأولى، رأت أشياءها تحلق بعيداً في الأفق، لم تعد معلقة فوقها لتفضحها، ولم تعد مكبوتة بداخلها لتقتلها، لقد أفرغت ذاكرتها في هواء المدينة المفتوح، لتصبح أخيرًا قادرة على العيش.

ما لا تعرفه عن زيزي

لم تكن «زيزي» تحصي الأيام، لكنها أدركت أن عشرة أيامٍ كاملة قد انقضت حين لاحظت أن أكواب الشاي التي تعدها تبرد دائمًا قبل أن ترتشف منها قطرة، عشرة أيام منذ تلاشت الخِطبة، بلا مشهد وداعٍ، ولا حتى تلويحة؛ مجرد جملة مقتضبة أغلقت باباً ضخماً كان مواربأً بينهما. منذ تلك اللحظة، زحف صقيع خفي إلى زوايا البيت، وكأن للغياب ثقلاً يُسمع دويّه.

كانت تقبع في غرفتها وسط الفوضى، تبتلع انفعالاتها كمن يخشى أن يوقظ وحشاً نائماً، لم تُبدِ أي ردة فعل، لم تبكِ، ولم تشتكِ لأحد؛ كانت تحاول فقط أن تسلخ هذا الخدر الموحش عن جسدها.

في اليوم العاشر، نهضت فجأة مدفوعة بملل الجلوس، مررت أصابعها بين خصلات شعرها القصير، فباغتها ملمسه الجاف؛ لقد فقد بريقه بعد أن هجرته عنايتها وتوارت أنوثتها في الظل، وقفت أمام المرآة لثوانٍ، رمقت أطرافه بنظرة خاوية، ثم أمسكت بفرشاتها تمشطه في محاولة لاسترداد شيء من نفسها، تنهدت بعمق، وجرت قدميها نحو المطبخ، حيث كانت معدتها الخاوية تُلح في طلب أي شيء يسد الفراغ.

أدارت مفتاح الموقد، اندلع اللهب الأزرق مبددًا صمت المكان، وبدأ الهواء الساخن ينتشر. وضعت إناءً على النار ووقفت أمامه بلا خطة، بلا وصفة، بل وبلا رغبة حقيقية في الطعام، تناولت سكينًا وبدأت تقطع بعض الخضراوات بحركة ميكانيكية ألفتها يداها، انعكست أشعة الشمس الخافتة على يدها اليسرى، حيث ترك الخاتم الغائب أثراً شاحباً، طوقت إصبعها العاري بنظرة خاطفة، ثم ابتلعت ريقها وواصلت تقليب المكونات بملعقة خشبية، بلا شغف، وبلا غاية.

فتحت خزانة البهارات، كانت العلب مصفوفة ومألوفة كحراس أوفياء، لا حاجة لها بقراءة الأسماء المكتوبة عليها؛ أصابعها تحفظ أشكالها، وأنفها يميز أرواحها. امتدت يدها إلى الملح، ونثرت قليلاً بمقدارٍ تضبطه عيناها؛ في تلك اللحظة المجردة، لم يحدث شيء جلل، سوى أن انقباضة صدرها قد ارتخت قليلاً، شهيق صغير كان كافياً ليبقيها صامدة.

دارت بعينيها والتقطت علبة الفلفل الأسود، ملعقة واحدة كانت كفيلة بأن تلسع أطراف

أنفها، فأثارت انزعاجها، تماماً كما يزعجها ذلك الغضب المكتوم الذي يتخبط في أحشائها ولم يجد طريقاً للانفجار.

شعرت أن المزيج يحتاج إلى روح أخرى؛ «إنه الكمون.. بهاري المفضل»، همست لنفسها بشيء من الود العفوي، قدرت الكمية بحسها المجرد، فلا ميزان هنا سوى الروح، لامست رائحته الترابية الدافئة حواسها، فغمرتها حالة من الأمان الصادق، في تلك اللحظة أدركت أنها لم تفقد ذاتها تماماً، ها هي تطل من جديد.

وحين أضافت مسحوق الشطة، انحدرت دمعة يتيمة على خدها، لم تكن من حرقة التوابل، بل كانت قطرة من ألمٍ صلبٍ قاومته طويلاً ورفضت عيناها الإفصاح عنه، استسلمت أخيراً للمرارة، ثم جاء دور القرفة، رائحتها الحلوة ذكّرتها بـ «زيزي» الرائعة، تلك الروح القديمة القادرة على زرع الضحكة في ملامح العابرين.

خفضت النار وتركت الإناء يهدأ، اتسع المطبخ في عينيها، وتبدلت ألوانه عما كانت عليه قبل ساعة، عاد الدم ليضخ الحياة في وجهها، تذوقت ملعقة صغيرة، فأغمضت عينيها وهي تشعر بتداخل النكهات، وهمست بتلذذ: «هذا لذيذ جداً».

خرجت من المطبخ، لكن رائحة البهارات رافقتها؛ لم تعد مجرد عبق في الهواء، بل صارت جزءاً من أنفاسها، وسرى دفء خفيف في أطرافها، وضعت يدها على صدرها، فاستشعرت خفقاتها تدق بإيقاع أهدأ، لم يختفِ حزنها بالكامل، لكنه تراجع إلى الخلف خطوات.

ما لم تكن تعرفه «زيزي» في تلك الليلة، أنها لم تطهُ الطعام كفعل روتيني لسد الجوع كما توهمت، بل كانت تعيد ترتيب شيء غير مرئي بداخلها، أطفأت النور، ضحكت في العتمة بصفاء طفولي، بعد أن أعادتها رائحة القرفة العزيزة... لذاتها التي تحبها.

أيـن رُبـي؟!

هتفت بصوت متقطع، ويداها تلامسان وجهها لتتأكد: «من أنا؟! هل هذه رُبى؟!».

وقفت رُبى تتأمل ذاتها على شاكلة جديدة؛ وجهٌ لامع لم تعهده، بدت عيناها أوسع من ذي قبل، وخدّاها مشدودين، وضحكتها ترتسم بشفتين مرسومتين أكثر فتنة، تسرح ببالها بعيداً وتتذكر..

كان أمراً غريباً حلّ على البلاد، بدأ الأمر بتقنية تحقن الزمن، فتوالت الأخبار عن صيحة التجميل الفارغة، تجلس كعادتها بعد يوم عمل، فتجد المشاهد والصور لجميلات جمعتهن الرغبة في استرجاع زمن الصبا، لم تهتم وقتها، ظلّ الحدث يتفاقم حتى وجدت كل من تقابله في البلدة وعلى وجهه مسحة بديعة؛ هذه اتبعت حمية وباتت رشيقة القوام، وأخرى أخفت شيخوختها بتقنية البوتوكس، وفتاة شفطت دهون البطن بسرعة شديدة، تندهش ثم تعود إلى صورها المحفوظة، تدقق وتقارن، وتفتش عن ملامحها التي خذلتها، تقوم مسرعة الخطى وتنظر بإمعان في المرآة، شكلها الذي يفوق عمرها -وهي في منتصف الثلاثين- أصبح لا يرضيها، وكأنه في منأى عنها، تدقق بصرها مجدداً، وتقول هامسة: «ربما جسدي الغضّ يحتاج إلى لمسة تغيير سريعة!».

ذهبت كعادتها للعمل، ألقت السلام عليهن، بادلتها صديقاتها التحية وبعض علامات الاندهاش تحتل وجوههن، تفهم وتتقافز التساؤلات في داخلهن، فابتسمت رُبى وقالت بهدوء: «حقنتُ العمر، وعليكنّ أن تفعلن ذلك...».

تحدّثت عن الطبيبة البديعة، وعرضت صورًا لكثيرات أصبحن أصغر سناً، لكن ردّ صديقاتها كان باهتاً: واحدة حذّرتها ألا تمحو ملامحها كما حدث مع أخريات، والأخرى قالت إن التجميل يحتاج التزاماً ومتابعة طويلة، هزّت رُبى كتفيها، وألقت بتحذيراتهنّ عرض الحائط.

أصبحت تتابع الكثيرات، وعرفت أكثر عن عالم التجميل، ظلّت تتابع هذه، وتتسابق مع إحداهن في تجميل منطقة في جسدها، وكل مرة توثق صورها (قبل وبعد) لتشاهد الفرق الجديد الذي تُولد معه كما تتخيل، الجميع في البلدة يُستنسخ، وهي مع كل فتاة تراها بشيء مغاير، تسارع إلى الطبيبة لتصنعه، ظناً منها أنه جمال حقيقي، وذات ليلة،

كانت تجلس وتشاهد صورة لها بعد آخر عملية خاضتها من أجل نحت قوامها، تتبدل ملامحها؛ كيف كانت وكيف صارت، تذكرت ابنتها ذات السنوات العشر وهي واقفة تترقب خروجها من المدرسة، لم تعرفها إلا بعد أنْ نادتها فانتبهت.

ترتعد فرائصها، تخشى وجهها الغريب الذي لم تألفه بعد، بهتت ضحكتها، حتى خطوط الابتسامة غير قادرة على الضحك. تمرر يدها على جسدها، فهو ملتهب من الداخل رغم حسن مظهرها الحالي، ظلّت تتساءل وتبكي: «أين رُبى؟!».

هرعت إلى طبيبتها تلك، تخبرها بضرورة الأمر، تريد أنْ تسترجع وجهها القديم من بين كل هذه النسخ المكررة، تريد نفسها بهيئتها الناعمة قبل أن تعصف بها هكذا!

وكان الرد صفعة على قلبها، فهي لا تملك زراً للعودة للوراءِ، وهذا وجهها الجديد، أما القديم فقد تركها من زمن.

ظـل الضحكة

" اخرسي، عديمة الأخلاق!".

هكذا صاحت امرأة يبدو من تجاعيد وجهها أنها تخطت الأربعينات من عمرها، تجاه امرأة لا تعرف لماذا أتت بوصلة السباب الغريب هذا!، وقف الرجل ينادي على الركاب ليكمل العدد ويوصل الجميع إلى وجهتهم المنشودة، كان الركاب متلاصقون، كلٌّ سارح في حاله وعالمه، الهواء ثقيل وكأن الجو يشوبه اختناق طفيف، في المقدمة شعرت امرأة كانت تهندم وشاح رأسها بلفحة نفس باردة مرّت مروراً سريعاً بجانب أذنها، همهمة الركاب تسود الموقف، وينادي السائق نداء أخيراً قبل الإقلاع.

صعدت امرأة شابة بخطوات هادئة وملامح بديعة الجمال، تخطو بخطى متساوية، وبيديها تتشبث يد طفل صغير، تنقل بصرها يميناً ويساراً حتى وصل إلى المكان الفارغ في آخر الحافلة، نظرات نارية وحادة ترميها لامرأة تكبرها بأعوام، فتنفعل وكأنها تحولت لملامح خطرة، يبكي الصغير والجميع يلتفون حولهما بفضول.

شعرت المرأة حين وصلت إلى آخر الحافلة حيث المقعد الفارغ، بحرارة غريبة تسري في أطرافها، وعندما التقت بالمرأة الأكبر سناً، تطاير الشرر من نظراتهما دون تفسير.

أنتِ.. لقد ضغطتِ على قدمي".

قالتها المرأة الثلاثينية وفي عينيها نظرات لهيب لافحة.

ارتبكت المرأة الأخرى ولم تدرِ بماذا ترد؛ سوى بجملة تعني أنها لم تقصد ذلك، بل زادت الثانية سُبابها اللاذع دون مبرر، تسارعت أنفاسها والمرأة أمامها لا تعرف سبباً لغضبها هذا.

تعالت الهمهمات من الرُّكَّاب وهم يشاهدون المعركة الدائرة بين النسوة، ومنهم من نعتها بفارغة تفتعل مشكلة وتجعلها بحجم السماء، وآخر قال:

"يبدو أنها نالت من زوجها غضباً قاسياً، وأخرجت ما في صدرها على تلك المسكينة..."

حاول رجل كبير العمر فض هذا النزاع الذي لا طائل منه سوى الإزعاج، لكنه توقف فجأة، وبينما كلٌّ منهما ترد على الأخرى وتدافع دفاعاً عن صواب موقفها، ظهرت ضحكة غريبة مختلفة، متقطعة وباردة، لا يعرفها أحد في أرجاء الحافلة ولا يدري أحد من أين بدأت، صداها يأتي من الداخل ويتصاعد، اندهش الجميع، نظروا إلى بعضهم البعض، سكت الكل في حيرة وارتباك، أنفاسهم تعلو وتهبط في سرعة، الضحكة ما زالت صاخبة، الطفل يختبئ بين أحضان أمه فزعاً، تجلس المرأة بجانب الأخرى، تهدأ ثورتهما في لحظة، انتبهت المرأة الثلاثينية لصراخها منذ لحظات، نظرت في ذهول وهمست:

"أنا.. لماذا كنت أصرخ!".

تستمر الضحكة في الأرجاء، يتحرك السائق غير مبالٍ، وكلما ابتعد خطوات، يخفت صوتها ويلوح في الأفق وميضُ لون أحمر، وفي الوجهة المنشودة توقفت الحافلة، وعند الباب لاحظ أحدهم ضوءاً أحمر يخفت تدريجياً، ليهتف أحد الركاب إنها ساعة شيطان وانتهتْ!

نوتـة أخيـرة لأبـي

"إنها ما تبقى من أبي!".

هتف الصغير وهو يمسك بطرف قميص والده...

كانت رائحة السوق تعبق بالتوابل، وتختلط فيها أصوات الباعة بصفير الريح بين الأزقة، وغير بعيد وقف طفل عند دكّان صغير تتدلّى فوق بابه لافتة باهتة كُتب عليها: صانع العطور، تردّد قليلاً قبل أن يدخل، كأنه يخشى أن تشتته الروائح عن رائحةٍ واحدةٍ يبحث عنها منذ زمن، وفي الداخل كان عجوز يجلس خلف طاولة تلمع فوقها القوارير الزجاجية كحبات ضوء، يراقبها بعينٍ تعرف أسرار الروائح، وعينا الصغير تتجولان كأنهما مفاتيح للغيب.

اقترب الطفل بخطوات حذرة، وقال بصوتٍ بالكاد يُسمع: «أريد عطراً يشبه رائحة أبي»، اندهش العجوز من حداثة الصغير، وكانت ظنونه تخبره أن له حكاية خاصة يريد للعطر أن تستحضر ذكراها، كان محل العطور أشبه بمتحفٍ للروائح؛ قوارير زجاجية مصطفّة كأنها تحرس أسراراً تليدة، كان يستمع إلى الصغير بكل تركيز حتى يصنع رائحة تخص أباه، أخبره عن مواقف والده معه، وبدأ يستحضر ذكريات فقيده العزيز وعيناه تلمعان حنيناً وحزناً، كان والده يعشق القهوة، يبدأ يومه وحبات البن تداعب الصباح حينما يوقظه، يأخذ الصغير رشفة خلسة ظناً منه أنه لم يره، فينكشف الأمر ويسعل ويضحكان سوياً، وفي كل مرة يروي الصغير ذكرى، يحاول العم وضع قطرات على أوراق اختبار، ويعطيها للصغير ليشمها ويشعر بالأثر، ومع كل مرة يرى وجه أبيه كما لو أن العطر فتح باباً بديعاً في الذاكرة، يستكمل عامر ببراءة أن والده كان نجاراً وللخشب أسرار خاصة، ملمس يديه كان خشناً لكنهما حملتا أماناً ثابتاً، يصمت هنيهة ويكمل بحماسة:

"كان يحملني كعصفور صغير على غصن آمن...».

سكب العم قطرة أخرى من خشب الصندل وناوله الورقة، سرتْ رعشة في جسده، تنهد تنهيدة طويلة وقال إن رائحة التراب أيضاً بعد المطر تثير في قلبه الحنين ودهشته الأولى لم تفارقه، كانا يمرحان تحت المطر، يركضان سويّاً بحرية وضحكاتهما الصاخبة

تتعالى، فيرفع والده يديه إلى السماء ويقول: «الأرض تغتسل!»، يتأمل عامر العم وهو يضع قطرات من نسب متساوية في الزجاجة الملونة مع زيت حامل وكل قطرة تقاس بدقة، فالنقطة الزائدة قد تُغير العطر إلى شيء آخر، يندهش الصغير من حركات العم، ويتساءل بعفوية:

«لماذا لا تضع القطرات مرة واحدة؟».

فيبتسم العجوز له، ويقول:

"كل عطرٍ يا صغيري له ثلاثُ حكايات... رائحةٌ تُصافحك أولاً ثم تهرب، تلك اسمها النوتة العليا، مثل اللقاء الأول، بعدها يظهر قلبُ العطر، وهو أصدق ما فيه، تماماً كقلب الإنسان، ثم تأتي الرائحة الأخيرة الأعمق التي تبقى حتى بعد الرحيل، فهي الأساس... هناك يسكن الأثر!».

حرك الصغير رأسه وهو ينظر للقطارة، وفجأة تلألأت الدموع في عينيه، والعم يربت على يديه الغضّتين، فيروي لحظة الشوق إلى عناق أبيه عند عودته للبيت، ورائحة الزهر تسبق طلّته تخبر الحاضرين أنه أتى، حتى ذاك اليوم حين لمْ يأتِ، ظلت رائحته طويلاً في غرفته.

تأثّر العجوز بعامر رغم حداثة عمره، انتهى من وضع القطرة الأخيرة، كانت يده ترتجف وهو يضيف قطرة واحدة من المسك، كأنها دمعة على زجاجة صغيرة، ناولها للصغير ليشمها، أغمض عينيه وقلبه ينبض، لمعت فرحة ممزوجة بدمعة وهتف بصوته الطفولي:

"إنها رائحته.. أبي هنا".

تأثر العم واحتضنه، وضع الزجاجة في يديه دون مقابل، خرج عامر يحمل والده في داخله، يحتمي بالزجاجة كأن العطر أعاد الحياة إلى قلبه.

من الشارع إلى المائدة

في منطقةٍ متواضعة توحي بألفة ساكنيها تختفي شمس النهار اللامعة، في الدور الثاني من بناية تليدة البنيان، يصدحُ صوتها منادياً على طفلها ذي العشر سنوات، تسترق النظر إلى القِدر وتعاود مرةً أخرى.. تزفر تنهيدة قصيرة وتقول:

''هيا نديم، افعل ما أمرتك به''.

هبط الصغير درجات السُلم على مهلٍ متباطئاً، مطمئناً ألا عقاب ينتظره إذْ تأخر عن العودة، وقف في الشارع يضحك مع صاحبه وقتاً قصيراً، ثم أكمل خطواته نحو البيت، يدخل بوجه بريء منادياً الرجل ليحضر له كيساً من السكر.

جلس الصغير يكمل ما بدأه من اللعب ويمضي دون قلق بعد ما ناله من توبيخ لفرط مشاغبته.

طرقات على الباب خفيفة من جارتها، فتحت عنها فأخبرتها عن رجل تعرفه يجلب لها السكر وهي أولى بذلك، وعليها أن تحجز حصتها فالأزمة المريرة طالت الجميع.

بعد خمسةِ أيام، تجلس بجانبه وهو يأكل من صنع يديها كعكاً فريداً يُحبه، ويروي غاضباً عن اختزال الأوباش للسلع كما يصفهم دائماً، حتى يحصلوا على الناقص منها بعد توصية وأحاديث بالكاد بعد رفع سعره، وكأنه ذهب.

يضحكان مجدداً ويكمل حديثه عن حكايا الشارع، وشائعات العالم البغيض، وتمضي الأيام السعيدة فهي تعرف حق المعرفة سأم الحياة وضرورة المسير.

أمسكت الهاتف تتصل بجارتها الودود التي تعرفها منذ سنوات، لتبتاع منها بصلاً من أرضها، وبوجه حائر لا يليق بالقلق تنهدتْ، فهي ستُدبر الأمر بعد نفاده.

أتى يوم مُشرق، وبينما تضع لمستها الخاصة في مطبخها الأنيق، تذكرت نفسها وهي تحافظ على البصل وتقتصد في طبخه، فتقلصت أصناف الطعام، وكيف أحضرت منه المزيد، فقد أنقذها في بعض الأيام، عندما دعا أخته المسافرة هي وأولادها إلى بلدٍ أجنبي، تستاء هي، فلا تعرف هل ستجد السكر مجدداً دون عناء، لتكتمل الحلقة الدائرة برفع ثمن البصل!

تضحك بسخرية، وتتنهد تنهيدة طويلة، وتهمس

''هكذا هي الحياة وعلينا أن نعرف كيف نعيشها...''.

الأزرق الأخير

الضوء من حولِها خافت، تجلسُ الفاتنة على مقعدٍ أنيق، وأمامها المرآة الصغيرة، وعلى الناحية الأخرى تسترق النظر لهذا الثوب وعيناها تُرسلان له مشاعر مُتضاربة تائهة، أنفاسها لا مستقرّ لها، تعيدُ النظر لنفسها وتتحدث بحديثٍ غير مفهوم المعنى... وتبكي!

يا لفرحتها الكبيرة، عندما انتهت من وضع كل لمساتها المُتفردة على هذا الثوب، كانت قدْ بدأت في غزله منذ حداثةِ عمرها وهي بالكاد تبلغُ سبع سنوات، تذكرّت حينما بدأت تلهو فأعلمتها والدتها بمهمة تطريز هذا الثوب لها. ليالي فتاة في السابعة عشر من عُمرها، منذُ بلوغها والجميع يطلب وِدّها من والدها، لكن ابن عمها تقدم لخطِبتها... عيناها تبدوان راضيتين ومُستكينتين، ومُرادها يتحقق بمن أبصرت به الوداد والهوى، الثوب الأسودُ في قبضتها، تُطرز تصميمات وزخارف مُنمقة ذات أشكالٍ هندسية رائعة، تملأ جميع الفراغات، تضيف كُل خبراتها ومهاراتها فيه، حتى يختفي القماش الأسود تحت كل هذه الألوان الصارخة من الأحمر والبرتقالي والأزرق وغيرها.. فيعبر عنها، ويبقى سراً حتى ترتديه ليالي يوم عُرسها، إنه الأشهب، ثوب زِفافها!

جاء اليوم المنشود بعد سنتين من خِطبتها، وهي تتزين بروحٍ ناعمة وتتدلل، فاليوم سيقام حفل السامر على ضوء القمر حيث يتجمع الرِجال والنساء ويشكلون صفاً يسمى السامر، وتبدأ مراسم العُرس، تدق الطُبول والأغنيات الشعبية، تتنقل الولائم للجميع لمدة ثلاثةِ أيام فهذا تقليدٌ في شمالِ سيناء.

يمسكَ يدها بدلال، تبصر عيناه فتجده يضمها.. يهمس لها:

"أنرتِ بيتكِ يا جميلة".

سافرت معه حيث الليالي السعيدة، حتى أدركها بعد أقل من شهر موت خالد، الجميع من حولها يُهدئ من روعِها، أحلامها وأمنياتها معه كانت قصيرة.. تبكي بحرقة، غير مصدقة رحيله في حادث سير، وهي تعانق والدتها ومن حولِها النسوة، مِنهن من تولول وتبكي شبابه الصغير وفرحتهم القصيرة، ومنهن من تدعو له برحمة الله وسلامه على روحه.. قام العزاء وانقلبت الفرحة سواداً وتغيّرت معها ألوان ثيابها، جلست أمام مرآتها تنظر للثوبِ الأزرق للون الحداد، بأيدٍ مرتجفة وتهمس بكل حسرة وهي تحتضن صورته:

"لم أعلم أن الأزرق الذي حلمت به يوماً فرَحاً، سيصير ستاراً لحدادي عليك يا خالد».

الفُرصة الضائعة

في ركن هادئ من بيتها الكبير، جلست زهرة تُقلّب دفاترها العتيقة، مر العمر وتلك المشاهد من البال لم تمرّ، أوراق صفراء، رائحة حبر قديم، وذاكرة ترفض أن تُمحى، فكلما تصفّحت صفحة، عادت أمامها صورة الفتاة ذات السابعة عشرة، بعيون زمردية لامعة وقلب ثائر يرفض الانحناء.

ذلك الصباح كان مختلفًا، نهضت بإصرار أن تُرافع عن حقها في الحياة، شعرت أن الأرض كلها ضدها، ومع ذلك ركضت، تعثرت، سقطت، لكنها نهضت من جديد، وصلت أخيرًا، لكن عند حافة الهاوية، هناك وجدت بابه مغلقًا في وجهها، ابتلعها سؤال واحد لم يفارقها:

كيف يمكن أن يُكافأ الإخلاص بالخيانة؟

كان قد وعدها بالزواج، أقسم أربعين قسماً، صلّى لله أربعين ركعة كما قال، كيف تحوّل الحبيب إلى غريب بهذه السرعة؟

رفضت أعراف العائلة التي تفرض الزواج من أبناء العمومة، واندفعت خلف قلبها البريء الذي لم يعرف الخداع بعد، لكنها خسرت. جلست على قارعة الطريق يومها، تقسم أن تعود بعقلٍ لا بقلب، ذلك كان قسمها الجديد الأصعب.

مرّت الأعوام، تزوجت ابن عمها، ورغم أنها أصبحت سيدة البيت الكبير، مات شيء في داخلها، وبعد وفاته بخمس سنوات، تحوّلت إلى امرأة جافة الملامح، لكن الحياة دائماً تعرف متى تُعيد فتح الجروح.

جاءتها فتاة صغيرة تُدعى «لما»، تحمل في عينيها بريقاً غريباً، ومدّت لها دفتراً مهترئ الأطراف، قالت لها:

هذا لكِ، تركه لكِ منذ سنوات.

ارتجفت أصابع زهرة، فتحت الدفتر لتقرأ كلمات خطها بيده، أخبرها أن حبه لها لم يكن يوماً كذبة، كان مريضاً بالكوليرا، لم يهرب، لم يخن، بل أُبعد عنها قسرًا، اكتشفت أن ابن عمها هدده، وأن أباها خطط لنفيه بعيداً إلى ألمانيا بحجة العمل، لكن الهدف كان

التخلص منه بعدما عرف أسرار تجارتهم غير المشروعة.

ارتعش جسدها وهي تقرأ، لم تكن تتخيّل أن الخديعة كانت بهذا العمق، انهمرت دموعها، ولم تستطع إلا أن تتساءل:

كم خسرنا من أعوام بسبب أكاذيب الآخرين؟

لكن الصدمة الكبرى كانت في الجزء الأخير، حيث كتب لها:

‘‘حين انتشرت الكوليرا في روسيا، نهش المرض جسدي، أصبحت هشاً بلا عافية.. لكن حبي لكِ لم يضعف يوماً، لو قُدّر لنا اللقاء، ستعرفين أنني لم أخنك قط».

ارتجفت بين يديها الأوراق، طلبت من «لما» أن تساعدها، قررت أن تسافر فوراً للقائه في موسكو، رتبت حقائبها على عجل، وكأنها تُحارب الزمن.. لكن قبل أن تصل إلى المطار، جاءها اتصال هزّ كيانها.

كان والد «لما» على الطرف الآخر، صوته متهدّج بالبكاء:

فات الأوان يا سيّدة زهرة... لقد رحل، لكنه قال قبل موته: سيظل حبها في قلبي ما حييت.

سقط الهاتف من يدها، دارت بها الأرض حتى أُغمي عليها، وحين أفاقت وجدت ابنتها بجوارها تمسك بيدها، و»لما» تُحاول تهدئتها، لكن زهرة لم تعد كما كانت، أصيبت بهوسٍ جعلها تُحادث طبيبها وكأنه هو، وكأن قلبها العالق في السابعة عشرة يرفض أن يشيخ.

ليالي والخيوط الزرقاء

قالت لنفسها:

"يبدو هذا إجهاداً ليس إلا".

في ذلك المساء، انحنت وهي تغسلها، فانتبهت إلى خطوطٍ زرقاء دقيقة مرسومة على الجلد بشكل مريب، قرّبت وجهها ودققت النظر، مرّرت أصابعها وهي ترتجف، لم تفهم، كانت بلا وجع، لم تكن (ليال) من النساء اللاتي يضعن الحنة كثيراً، تفعل ذلك نادراً وهي بمزاج رائق، وللزينة لا أكثر. في تلك اللحظة، أخرجتها من درج يحوي أدوات تجميل ناعمة، لا لتزينها، بل لتخفي خريطة صكَّت ملكيتها على هذا الجسد الغضّ، رسمت فوق الخطوط نفسها، تبعتها بدقّة، كأنّها تستر شيئاً ظهر قبل أن تفهم معناه، حين انتهت بدت ساقها كما كانت، ولكن في داخلها كانت تعرف أنّ شيئاً ما تغيّر.

عادت إلى يومها وطلبات أولادها الكبار، تعرف طلباتهم اليومية، وتعد طبخة الغداء قبل أن يأتوا إلى البيت، يتسلل إليها ثقل بين الفينة والأخرى، تفلت منها آه موجعة، تُعاند وتكمل بلا تفكير أو تردد، وفي الليل يظهر عليها الثقل، يَسري في خطواتها، لا أحد يسعى إلى معرفة أنينها الصامت هذا، تُلقي عليهم نظرة مشحونة بما هي فيه وتمضي داخل غرفتها.

مع الأيام اختفت الحنة، وظهرت معها الأوردة بوضوح، تمسك ساقها بتوتر، تضع أصابعها عليها وتشعر بانتفاخ لوريد يطفو على سطح الجلد قليلاً، وقفت مراراً لتتأكد، وخز الألم يلسعها، تجلس شاردة وتقول:

"لا بد من استشارة الطبيب".

في غرفة الكشف، مدت ساقها، نظر للخطوط الزرقاء، وجدها متفرعة، ضغط طويلاً، وأفلتت منها آهة بطول عمرها، سألها أسئلة قصيرة، وهي تُجيب، لا عوامل وراثية ولا ضعف سابق أصابها.

وأخيراً أخبرها لمَ وقفت كثيرًا حتى وصلت إلى هذه الحالة، «هذه دوالي من الدرجة الثانية».

قالها الطبيب بعينٍ اعتادت رؤية هذا المرض، دهشتْ وارتبكتْ، أكمل تعليماته المهمة التي وجب عليها تنفيذها لترتاح عروقها من انتفاخ مريع، وهي أمامه تهز رأسها بتلقائية، خرجت ومعها ورقة تحوي أدوية وجوروباً ضاغطاً يحافظ على ما تبقى من صحة ساقها ليُعود الدم إلى مساره الطبيعي.

بعد هذا تغير البيت، الجميع يتعاون معها، بعد أن أمضت العمر وهي واقفة طويلاً دون استراحة، اعتاد أولادها أن يساعدوا أنفسهم، وهي من ناحية أخرى تتصالح مع أحلامها المؤجلة، تجلس قبل أن يطلب منها ذلك، وتهتم بحركتها وتمنح جسدها قليلاً من الرحمة والجلوس. استيقظت ليالي وأشعة الصباح في غرفتها، تهب واقفة وأنفاسها تعلو وتهبط، تنظر لساقها، تتفحصها بدقة، لا أثر لأي شيء، دخلت عليها والدتها لتوقظها للذهاب إلى الجامعة، فوجدتها جالسة تضحك ساخرة وتقول:

"حُلم مريع يا ماما، لا تقلقي!".